

﴿وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ﴾ ٤١ ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخَذَ عَزِيزٌ مُّقْتَدِرٌ﴾ ٤٢ ﴿أَكْفَارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أَوْلِيَّكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ﴾ ٤٣ ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرُونَ﴾ ٤٤ ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ ٤٥ ﴿بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَذْهَى وَأَمَرٌ﴾ ٤٦ ﴿

[القمر: 41 - 46]

❁ مُنَاسَبَةُ الْآيَاتِ لِمَا قَبْلَهَا:

لَمَّا كَانَ تَكَرُّرُ إِذْنَارٍ مِّنْ سَبَقَ قَدْ يُوهِمُ أَنَّ مَنْ تَأَخَّرَ عَنْهُمْ فِي الزَّمَانِ لَمْ يُنْذَرْ، وَأَنَّ الْهَلَاكَ وَقَعَ بِهِ لِحُجْرَدِ تَقْرِيطِهِ فِي الْإِعْتِبَارِ بِمَنْ تَقَدَّمَ، دَفَعَ اللَّهُ هَذَا الْوَهْمَ بَيَانًا أَنَّ آلَ فِرْعَوْنَ - مَعَ كَوْنِهِمْ مُتَأَخِّرِينَ عَنْ قَوْمِ لُوطٍ - قَدْ جَاءَهُمُ النُّذُرُ كَذَلِكَ، فَقَالَ سُبْحَانَهُ مُقْسِمًا: ﴿وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ﴾؛ لِيَعْلَمَ أَنَّ سُنَّةَ اللَّهِ مَاضِيَةٌ فِي الْإِذْنَارِ قَبْلَ الْإِخْذِ، وَأَنَّ الْهَلَاكَ لَا يَقَعُ إِلَّا بَعْدَ قِيَامِ الْحُجَّةِ (١).

بِالنَّظَرِ إِلَى عُمُومِ السِّيَاقِ فِي سُورَةِ الْقَمَرِ نَجَدُ احْتِكَامًا بِبَلَاغِيًّا إِلَى قَاعِدَةِ (مُطَابَقَةِ الْمَبْدَأِ لِلْخَاتِمَةِ)، وَهُوَ مَا يَدْخُلُ ضَمْنَ (مُرَاعَاةِ النَّظِيرِ)، وَيُعَدُّ مِنْ أَسَالِيبِ الْإِحْكَامِ وَالتَّفَنُّنِ فِي الْأَسْلُوبِ الْقِرَائِيِّ؛ فَمُطَابَقَةُ الْبَدْءِ بِالْخَتْمِ تَتَجَلَّى فِي أَنَّ الْإِغْرَاقَ عَذَابُ أَوَّلِ مُكَذِّبٍ (قَوْمِ نُوحٍ)، وَالْإِغْرَاقَ عَذَابُ آخِرِ مُكَذِّبٍ (آلَ فِرْعَوْنَ)، مَعَ تَرَقُّقٍ فِي وَسِيلَةِ النُّجَاةِ: فَنُوحٍ نَجَا بِسَفِينَةٍ صَنَعَهَا يَدَاهُ بِإِذْنِ اللَّهِ. وَمُوسَى نَجَا بِشَقِّ الْبَحْرِ، فَكَانَتْ أَرْضًا تَمْخَرُهَا أَقْدَامُهُمْ لَا أَلْوَاحَ وَدُسْرَ. فَكَانَ الْخَتْمُ أَدهَشَ مِنَ الْبَدْءِ؛ لِأَنَّ مُوسَى لَمْ يَحْتَجْ أَنْ يَصْنَعَ سَفِينَةً مُنْجِيَةً؛ فَكَانَتْ قُدْرَةُ اللَّهِ هِيَ الْمُنْجِيَّةُ، وَقَدْ أَحَاطَتْ بِالْمِيَاهِ بِالرُّسُولَيْنِ، وَمَنْ مَعَهُمَا.

الانتقال من
الأمم القديمة
إلى القريية

بلاغة للناسبة
بين مطلع
القصة
وختمها

(1) البقاعي، نظم الدرر: 128 / 19.

❁ شرح المفردات:

(1) ﴿الزُّبُرِ﴾: أصل (زبر) يدلُّ على قراءةٍ وكتابةٍ وما أشبه ذلك، فأصل (زَبَرَ) هنا: يدلُّ على إحكام الشيء وتوثيقه، ويدلُّ على قراءةٍ وكتابةٍ وما أشبه ذلك⁽¹⁾. يُقال: زَبَرْتُ الكتابَ، إذا كَتَبْتُهُ، ومنه الزُّبُورُ⁽²⁾. وكلُّ كتابٍ غليظٍ الكتابة يُقال له: زَبُورٌ، وخُصَّ الزُّبُورُ بالكتاب المنزَّل على داودَ عليه السلام. والزُّبُرُ: الكتبُ التي كُتِبَ فيها ما أُوحيَ إلى الرُّسُلِ⁽³⁾. وربما قالوا: زَبَرْتُهُ، إذا قرأته. وقيل: بل الزُّبُورُ كلُّ كتابٍ يصعبُ الوقوفُ عليه من الكتبِ الإلهيةِ، قال: ﴿وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء: 196]⁽⁴⁾. والزُّبُرُ في الآية جمعُ زَبُورٍ، وهو الكتابُ، وزَبُورٌ بمعنى مَزَبُورٍ؛ أي: براءةٌ كُتِبَتْ في كُتُبِ الله تعالى السالفةِ⁽⁵⁾.

(2) ﴿وَيُؤَلَّنُ﴾: أصل (ولي) يدلُّ على قُرْبٍ؛ من ذلك الوَلِيُّ: القُرْبُ، يُقال: تَبَاعَدَ بَعْدَ وَلِيٍّ؛ أي: قُرْبٍ⁽⁶⁾. والولاية: تَوَلَّى الأمر، فإذا عُدِّي (تَوَلَّى) بنفسه افتضى معنى الولاية، وحصوله في أقرب المواضع، وإذا عُدِّي بـ (عَنْ) لفظًا أو تقديرًا اقتضى معنى الإعراض وتَرَكَ قُرْبَهُ. والتَوَلَّى: الإعراضُ بعد الإقبال⁽⁷⁾. وهو هنا بمعنى: يجعلونَ غيرَهُم يَلِيَّ⁽⁸⁾؛ أي: يرجعون إلى الأدبارِ هارِبِينَ⁽⁹⁾.

(3) ﴿الدُّبُرِ﴾: أصل (دبر) يدلُّ على خلافِ القُبُلِ⁽¹⁰⁾. والدُّبُرُ مؤخَّرُ الشيء وخَلْفُهُ، يُقال: دَبَرَ النَّهَارُ وأَدْبَرَ: إذا جاءَ آخِرُهُ. والتَّدْبِيرُ: أن يَنْظُرَ الإنسانُ إلى ما تَصِيرُ عَاقِبَتُهُ وآخِرُهُ، ويُطْلَقُ الدُّبُرُ أيضًا على الظَّهْرِ⁽¹¹⁾. والإدبارُ: الدَّهَابُ إلى جهةِ الخلف. يُقال: وَلَاهُ دُبْرُهُ: إذا انْهَزَمَ⁽¹²⁾. والدُّبُرُ في الآية معناه: الظَّهْرُ، وهو ما أَدْبَرَ: أي: كان وراءَ،

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (زبر).

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (زبر).

(3) ابن عاشور، التَّحْرِيزُ والتَّنْوِيرُ: 162/14.

(4) الخليل، العين، والزَّاعِب، المفردات، والسَّمين، عمدة الحَقَّاط: (زبر).

(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (زبر).

(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ولي).

(7) الزَّاعِب، المفردات: 179/27.

(8) ابن عاشور، التَّحْرِيزُ والتَّنْوِيرُ: 213/27.

(9) الزَّاعِب، المفردات: (ولي).

(10) ابن فارس، مقاييس اللغة، والزَّاعِب، المفردات: (دبر).

(11) الجوهري، الصحاح، وابن الأثير، النهاية: (دبر).

(12) الكفوي، الكلِّيات، ص: 160.

والمقصود بالدُّبر هنا: الأدبار؛ أي: يُولِّي كلُّ أحدٍ منهم دُبْرَهُ،
فينصرفوا مُنْهَزمين⁽¹⁾.

(4) ﴿أَذْهَى﴾: أَصْلُ (دهي) إصَابَةُ الشَّيْءِ بِالشَّيْءِ بِمَا لَا يَسُرُّ.
يُقَالُ مَا ذَهَاهُ: أَي: مَا أَصَابَهُ. لَا يُقَالُ ذَلِكَ إِلَّا فِيمَا يَسُوءُ. ودَوَاهِي
الدَّهْرِ: مَا أَصَابَ الْإِنْسَانَ مِنْ عِظَائِمِ نَوْبِهِ⁽²⁾. والدَّاهِيَةُ أَمْرٌ فَظِيعٌ لَا
يُهْتَدَى لدَوَائِهِ⁽³⁾. وأَذْهَى: اسْمٌ تَفْضِيلٌ مِنْ ذَهَاهُ إِذَا أَصَابَهُ بِدَاهِيَةٍ،
وهي الرِّزْيَةُ الْعُظْمَى تَنْزِلُ بِالْمَرَّةِ⁽⁴⁾، والمراد هنا: السَّاعَةُ أَشَدُّ إصَابَةً
بداهيةِ الْخُلُودِ فِي النَّارِ مِنْ دَاهِيَةِ عَذَابِ الدُّنْيَا بِالْقَتْلِ وَالْأَسْرِ⁽⁵⁾.

(5) ﴿وَأَمْرٌ﴾: أَصْلُ (مَرٌّ) يَدُلُّ عَلَى خِلَافِ الْحَلَاوَةِ وَالطَّيْبِ. ومنه
قولهم: أَمَرُ الشَّيْءِ يُمَرُّ وَمَرٌّ، إِذَا صَارَ مَرًّا. وَلَقِيتُ مِنْهُ الْأَمْرَيْنِ؛ أَي:
شَدَائِدَ غَيْرِ طَيِّبَةٍ. وَالْأَمْرَانِ: الِهْمُّ وَالْمَرَضُ⁽⁶⁾، والمراد هنا: أَشَدُّ مَرَارَةً
وَمَذَاقًا مِنْ عَذَابِ الدُّنْيَا، وَاسْتُعِيرَتِ الْمَرَارَةُ لِلْإِحْسَاسِ بِالْمَكْرُوهِ⁽⁷⁾.

❁ اللَّغْنَى الْإِجْمَالِي:

تُذَكِّرُ الْآيَاتُ الْكَرِيمَةُ بِمَا نَزَلَ بِآلِ فِرْعَوْنَ حِينَ جَاءَتْهُمْ النُّذُرُ
عَلَى لِسَانِ مُوسَى وَهَارُونَ، فَكَذَّبُوا بِالْآيَاتِ الَّتِي أَرْسَلَهَا اللَّهُ،
وهي تِسْعُ آيَاتٍ مِنْ أَوَّلِهَا الْعَصَا إِلَى انْفِلَاقِ الْبَحْرِ، فَأَصْرَوْا عَلَى
الْكُفْرِ وَالظُّلْمِ، فَكَانَ جَزَاؤُهُمْ أَنْ أَخَذَهُمُ اللَّهُ أَخَذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ،
لَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ، فَأَغْرَقَهُمْ أَجْمَعِينَ، ثُمَّ تَوَبَّخَ الْآيَاتِ مُشْرِكِي قُرَيْشٍ،
وَتَخَاطَبُهُمْ: أَكْفَارُكُمْ يَا قُرَيْشُ خَيْرٌ مِنْ أَوْلَئِكَ الَّذِينَ أَهْلَكْنَاهُمْ مِنْ
قَبْلُ؟ أَمْ أَنَّ لَكُمْ بَرَاءَةً مَكْتُوبَةً فِي الْكُتُبِ تُنْجِيكُمْ مِنَ الْعَذَابِ؟ لَا

دَعَاوَةُ آلِ
فِرْعَوْنَ،
وَعُرُورُ قُرَيْشٍ،
يَجْتَمِعَانِ فِي
إِنْكَارِ يَوْمِ لَا مَرَدَّ
لَهُ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 213 / 27.

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (دهي).

(3) البياضوتي، أنوار التنزيل: 5 / 168.

(4) ابن عطية، للحرز الوجيز: 5 / 221.

(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 214 / 27.

(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (مَرٌّ).

(7) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 214 / 27.

هذا ولا ذاك، بل أنتم مُمهّلون، فإِذَا التَّوبَةُ وَإِذَا الْهَلَاكُ، وقد كانوا يقولون مُتفاحِرِينَ بِقُوَّتِهِمْ وَكَثَرَتِهِمْ: نحنُ جماعةٌ لا تُهْزَمُ، فجاء الرُّدُّ الصَّارِمُ: ﴿سَيَهْزِمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾، وقد تحقَّق ذلك في بدرٍ حين هُزِمُوا، وولَّوْا هَارِبِينَ، وتذكَّرْهُمْ أَنَّ الْعَذَابَ الْحَقِيقِيَّ مَا زالَ أَمَامَهُمْ: ﴿بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ﴾؛ أي: أَنَّ الْعَذَابَ الْأَعْظَمَ يَنْتَظِرُهُمْ فِي الْآخِرَةِ، فَإِنَّ عَذَابَ الدُّنْيَا إِلَى جَانِبِهِ هَيِّنٌ، وَالسَّاعَةُ دَاهِيَةٌ كَبِيرٌ، وَبِلَاءٌ شَدِيدٌ، وَعَذَابُهَا أَمْرٌ مِنْ كُلِّ مَا ذاقوه فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ⁽¹⁾.

❁ الإيضاح اللغوي والبلاغي:

دلالة تصدير القصة بالمؤكدات:

جاء قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذْرُ﴾ مُصَدَّرًا بـ (اللام) و (قد)، وهما أداتا تأكيد، ومعهما القسم المُقَدَّر؛ أي: (والله لقد جاء آلَ فِرْعَوْنَ النُّذْرُ)؛ وذلك لإبراز شِدَّةِ الْعَنَاءِ بِهَذَا الْمُقْطَعِ مِنَ الْقِصَصِ، وَتَمْيِيزَهُ عَنْ غَيْرِهِ مِنْ حَيْثُ خَطُورَتُهُ وَوَقْعُهُ. لِأَنَّ آلَ فِرْعَوْنَ، بِخِلَافِ الْأَقْوَامِ الْأُخْرَى، عَايَنُوا آيَاتٍ عَظِيمَةً مُتَتَابِعَةً: الطُّوفَانِ، وَالْجَرَادِ، وَالْقُمَّلِ، وَالضَّفَادِعِ، وَالْدَّمِ، وَانْفِلَاقِ الْبَحْرِ، وَالْعَصَا، وَالْبَيْضَاءِ... فَهِيَ أَعْظَمُ آيَاتٍ جَاءَتْ لِقَوْمٍ مُجْتَمِعَةٍ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى﴾ [التَّائِيَاتُ: 20]، وَلِأَنَّ عَقُوبَتَهُمْ كَانَتْ بِالْهَلَاكِ الْغَامِرِ وَالذُّلِّ الْمُهِينِ، فَقَدْ أَهْلَكُوا غَرَقًا، ثُمَّ أَدْخَلُوا النَّارَ ﴿يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ [غافر: 46]، فَهُمْ مِنْ أَشَدِّ مَنْ أَخَذَ اللَّهُ كَمَا فِي قَوْلِهِ: ﴿فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ﴾؛ وَلِأَنَّ مُوسَى ﷺ جَاءَهُمْ بَعْدَ غَيْبَةٍ، وَجَاءَهُمْ مُبَاشَرَةً بِرِسَالَةٍ صَرِيحَةٍ، وَأَيَّدَهَا بِمُعْجَزَاتٍ عَمَلِيَّةٍ مَشْهُودَةٍ، فَصَارَ مَجِيءُ النُّذْرِ إِلَيْهِمْ أَصْرَحَ وَأَوْضَحَ مِنْ أَنْ يُكَذَّبَ بِهِ، وَمَعَ ذَلِكَ وَقَعَ مِنْهُمْ أَعْظَمُ الْعِنَادِ⁽²⁾.

التوكيد القرآني
يشد الانتباه
حين تكون
الجريمة أفظع
وأوضح

(1) الجزائري، أيسر التفاسير: 217/5، 218، 219.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 173/8، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 208/27.

توجيه الاختلاف في توكيد مطلع القصة دون أخواتها:

جاء مطلع الحديث عن آل فرعون مؤكّداً في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ﴾، بخلاف بقية القصص التي بدأت بدون توكيد، كقوله: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ [القمر: 9]، وقوله: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَدَايِ وَنُذِرٍ﴾ [القمر: 18]، وقوله: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ﴾ [القمر: 23]، وقوله: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ﴾ [القمر: 33]، ونكتة ذلك التنبيه على قرب آل فرعون من مُشركي قريش زمانياً، وأنّ العذاب نزل في الآل، ومن استنقوى بفرعون وسار معه في حربهِ على موسى ﷺ لاستئصالهم، فكانت هناك مُشابهة ومقاربة، فكان التوكيد لفتاً للأنظار لما سيقع على رؤوس المُشركين من القتل والتكليف، ولأسيماً السادة الذين هم أشبه بآل فرعون، ومما يُرشح الفرق في التوكيد، وأنه مُراد به العذاب الخاص بسادة المُشركين، ما وقع لهم يوم بدر، والذي أشارت إليه الآية اللائحة، وهي قوله تعالى: ﴿سَيَهْزِمُ الْجَمْعُ وَيُؤَلِّونَ الدُّبُرَ﴾ [القمر: 45]، وهو عين ما وقع يوم بدر، فكانت هزيمته مُقاربة لهزيمة فرعون، فغرض التوكيد هو لفت الأنظار لما سيكون في المستقبل القريب.

توجيه اختلاف التعبير بالإخبار عن مجيء النذر دون تكذيب آل فرعون:

آثر النظم الكريم ذكر مجيء النذر في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ﴾ بخلاف بقية القصص، كما قال: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ﴾، وقال: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ﴾، وقال: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ﴾، وقال: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ﴾؛ وذلك أنّ دعوة موسى ﷺ لم تكن موجّهة إلى (شعب القبط كافة) بالتكليف، وإنما كانت موجّهة إلى فرعون والطبقة الحاكمة المسؤولين عن قهر بني إسرائيل، لهذا اختص آل فرعون بالإنذار دون إطلاق الوصف على (قوم فرعون) أو (القبط). وهذا له مدخل في التعبير بالمجيء دون التكذيب؛ لأنّه

الوعيد باقتراب
هزيمة سادة
قريش بما
يشابه هزيمة
آل فرعون

الرسالة الإلهية
تستهدف
المسؤول الأول
عن الظلم قبل
سائر الناس

إذا كان مَنَاطُ التَّكْذِيبِ وَصْدُ الرِّسَالَةِ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ نَاسَبَ التَّمْهِيدَ بِالْإِنْذَارِ: (جاء النُّذْرُ) ثُمَّ الْإِخْبَارُ بَعْدَهُ: ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا﴾؛ لَأَنَّ الْغَايَةَ أَوَّلًا هِيَ إِقَامَةُ الْحُجَّةِ لَا اتِّهَامُهُمْ، وَبَيَانُ مَسْئُولِيَّتِهِمْ لَا التَّعْمِيمَ عَلَى الْأُمَّةِ، فَالسِّيَاقُ هُنَا أَرَادَ أَنْ يُظْهِرَ إِقَامَةَ الْحُجَّةِ أَوَّلًا قَبْلَ ذِكْرِ رَدِّهَا بِالتَّكْذِيبِ؛ لَكُونَ التَّكْذِيبُ صَادِرًا مِنْ جِهَةٍ وَطَبَقَةٍ مَخْصُوصَةٍ لَا مِنْ الْمَجْمُوعِ الْعَامِّ، بِخِلَافِ الْقَصَصِ السَّابِقَةِ؛ فبِدَافِئِهَا بِذِكْرِ ﴿كَذَّبَتْ﴾ دُونَ تَمْهِيدٍ بِالْإِنْذَارِ؛ لَأَنَّ قَرَارَ التَّكْذِيبِ كَانَ جَمْعِيًّا مِنْ عُمُومِ الْأُمَّةِ، فَكَانَ التَّرْكِيزُ لَيْسَ عَلَى الْإِبْلَاجِ، بَلْ عَلَى رَدِّ الْإِبْلَاجِ، إِسْرَاعًا فِي تَسْجِيلِ الْإِدَانَةِ الْقَاطِعَةِ بِالتَّكْذِيبِ؛ لِيَكُونَ مُنْطَلَقًا لِاسْتِحْقَاقِ الْعُقُوبَةِ، وَهَذَا مِنْ دَقَّةِ الْقُرْآنِ فِي عَدْلِهِ فِي التَّعْبِيرِ، وَإِحْكَامِهِ فِي تَوْزِيعِ الْمَعَانِي بِحَسَبِ السِّيَاقِ وَالْمُخَاطَبِ⁽¹⁾.

نُكْتَةُ التَّعْبِيرِ بِالْمَجِيءِ دُونَ الْإِرْسَالِ:

التَّعْبِيرُ بِالْمَجِيءِ دُونَ الْإِرْسَالِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَ عَالِ فِرْعَوْنَ النُّذْرُ﴾؛ لَأَنَّ (أُرْسِلَ) تَدُلُّ عَلَى التَّكْلِيفِ بِالْبَلَاغِ، وَهِيَ أَنْسَبُ حِينَ يُرَادُ بَيَانُ وَظِيفَةِ الرَّسُولِ، وَ﴿جَاءَ﴾ تَدُلُّ عَلَى الْوُصُولِ الْفِعْلِيِّ وَالْقُدُومِ الْمَحْسُوسِ، وَهِيَ أَنْسَبُ حِينَ يُرَادُ تَصْوِيرُ الْمُقَابَلَةِ وَالْمُوَاجَهَةِ. وَمَجِيءُ مُوسَى ﷺ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ كَانَ فِعْلِيًّا وَحِسِّيًّا وَمُلْحُوظًا، فَمُوسَى كَانَ غَائِبًا عَنْ مِصْرَ، هَارِبًا إِلَى مَدْيَنَ، ثُمَّ عَادَ إِلَيْهِمْ فَجَاءَ بَعْدَ غِيَابٍ طَوِيلٍ يَحْمِلُ رِسَالَةً مِنْ رَبِّهِ، فَجَاءَهُمْ بِالْآيَاتِ وَبِالْإِنْذَارِ مُشَافَهَةً وَمُعَايَنَةً، فَعِبَارَةٌ ﴿جَاءَ﴾ أَدْقُ وَأَقْرَبُ لِلتَّصْوِيرِ الْحَسِّيِّ الْوَاقِعِيِّ، وَهُوَ أْبْلَغُ فِي الْإِيْذَانِ بِاسْتِحْقَاقِ أَوْضَحٍ لِلْعُقُوبَةِ؛ لَأَنَّ النُّذْرَ لَمْ يَكُنْ غَائِبًا أَوْ عَبْرَ رِسَائِلَ، بَلْ (جَاءَهُمْ) بَعِيْنِهِ شَخْصًا وَصَوْتًا وَآيَةً⁽²⁾.

الْإِنْذَارُ الصَّرِيحُ
حُجَّةٌ بِالِغَةِ لَا
عُذْرَ بَعْدَهَا

(1) ابن عاشور، التَّحْرِيزُ وَالتَّنْوِيرُ: 208 / 27.

(2) الْفَخْرُ الرَّازِي، مِفْتَاحُ الْغَيْبِ: 319 / 29.

فائدة ذُكر ﴿عَالِ فِرْعَوْنَ﴾ دون الاكتفاء بِفِرْعَوْنَ:

ذَكَرَ الْقُرْآنُ ﴿عَالِ فِرْعَوْنَ﴾ دُونَ التَّصْرِيحِ بِذِكْرِ فِرْعَوْنَ وَحْدَهُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَ عَالِ فِرْعَوْنَ النُّذْرُ﴾ فَيَصِيرُ ذِكْرُ الْجُزْءِ دَالًّا عَلَى ذِكْرِ الْكُلِّ؛ لِبَيَانِ مَسْئُولِيَّةِ مَنْ يُحِيطُ بِالظَّالِمِ، وَيَتَصَرَّهْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ، وَأَنَّهُ لَا يَنْفَكُ عَنْ مَصِيرِهِ الدُّنْيَوِيِّ وَالْآخِرِيِّ، فَفِيهِ تَنْبِيهُ لِسَادَةِ قُرَيْشٍ وَمَنْ يَلُودُ بِهِمْ، وَيُنَاصِرُهُمْ عَلَى الْحَقِّ، بِأَنَّ مَصِيرَهُمْ كَمَصِيرِهِمْ، فَضْلًا أَنَّ فِرْعَوْنَ دَاخِلٌ فِي الْآلِ، بَلْ هُوَ أَوْلَى النَّاسِ بِالذِّكْرِ، فَالْاِكْتِفَاءُ بِذِكْرِ (الْآلِ) يُغْنِي عَنِ التَّصْرِيحِ بِهِ؛ لِأَنَّ عِلْمَ السَّمَاعِ يَسْتَحْضِرُهُ تَلَقُّائِيًّا بِاعْتِبَارِهِ رَأْسَ الْآلِ وَمَصْدَرَ الْقَرَارِ⁽¹⁾.

بلادة الإسناد المجازي:

مفرد ﴿النُّذْرُ﴾ الإنذار؛ أي: الإنذارات والرسالات، فيكون إسناد فعل المجيء إلى النُّذْرِ (الإنذارات) مجازًا عقليًا بعلاقة السببية؛ لِأَنَّ الرُّسُلَ جَاءُوا بِسَبَبِ النُّذْرِ، فَلَوْ لَمْ يَحْمِلُوا لِأَقْوَامِهِمُ النُّذْرَ لَمَا جَاءُوا، وَمَا الْقَوْلَيْنِ يَصُبُّ فِي الْغَايَةِ وَالْمَالِ، وَنَكْتَةُ الْمَجَازِ تَهْوِيلُ الْإِنْذَارِ، حَتَّى كَأَنَّهُ هُوَ الَّذِي جَاءَهُمْ مُوَاجَهَةً.

فائدة استعمال مُفردة ﴿عَالِ﴾ بدل (قوم):

آثَرَ النَّظْمُ الْكَرِيمُ التَّعْبِيرَ بِالْآلِ بَدَلَ الْقَوْمِ، فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَ عَالِ فِرْعَوْنَ النُّذْرُ﴾؛ لِأَنَّ (القوم) أَعْمُ مِنْ (الآل)؛ فَالْقَوْمُ: كُلُّ مَنْ يَقُومُ الرَّئِيسُ عَلَى أَمْرِهِمْ، فَيَقُومُونَ هُمْ بِأَمْرِهِ، وَقَوْمُ فِرْعَوْنَ كَانُوا تَحْتَ قَهْرِهِ بَحِيثٍ لَا يُخَالِفُونَهُ فِي قَلِيلٍ وَلَا كَثِيرٍ؛ فَالْقَوْمُ يَشْمَلُ كُلَّ مَنْ يَدْخُلُ تَحْتَ سُلْطَةِ فِرْعَوْنَ، سِوَاءٍ مِنْ خَاصَّتِهِ أَوْ مِنْ عَامَّةِ النَّاسِ. أَمَّا (الآل) فَهُمْ الْخَاصَّةُ وَالْمُقَرَّبُونَ مِنْ فِرْعَوْنَ؛ أَي: النُّخْبَةُ الدَّاعِمَةُ وَالْمُشَارِكَةُ لَهُ فِي الْقَرَارِ وَالتَّمَكُّينِ وَالِاسْتِكْبَارِ؛ كَهَامَانَ

تنبيه أعوان
الظالمين إلى
وحدة النصير
الدنيوي
والأخروي

مدار الأمر على
الرسالة لا
الرسول المنذر

موالاة الظالمين
تدخل الموالين
في حكمهم
ومصيرهم

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8 / 173.

وقارونَ والمَلَأَ، فَهُمْ الَّذِينَ شَارَكُوهُ فِي الظُّلْمِ، وَالصَّدَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ، وَالطُّغْيَانَ، وَتَكْذِيبَ النَّذْرِ عَنْ وَعْيٍ وَاخْتِيَارٍ، وَهُمْ الْمُقْصُودُونَ هُنَا فِي الْآيَةِ⁽¹⁾، وَذُكِرَ الْأَلْ دُونَ الْقَوْمِ لِلتَّنْبِيهِ عَلَى نَزُولِ الْعَذَابِ عَلَيْهِمْ، فَقَدْ شَمَلَ الْعَذَابُ آلَ فِرْعَوْنَ جَمِيعًا.

نُكْتة تقديم ﴿عَالَ فِرْعَوْنَ﴾ على الفاعل:

قَدْ ذُكِرَ الْمَفْعُولُ عَلَى الْفَاعِلِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَ عَالَ فِرْعَوْنَ النَّذْرُ﴾ لتوجيه انتباه المخاطبين على أهمية الحدث، فَإِنَّ شَأْنَ التَّنْبِيهِ فِي الْخُطَابِ شَأْنٌ تَحْذِيرِيٌّ يَدْفَعُ الْمَصَائِبَ إِنْ تَفَاعَلَ مَعَهَا الْمُخَاطَبُ بِعَقْلِهِ وَقَلْبِهِ، وَشَأْنٌ تَوْيِيخِيٌّ إِنْ أَهْمَلَ النَّظَرَ فِيهَا.

دلالة جمع ﴿النَّذْرُ﴾:

النَّذْرُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَ عَالَ فِرْعَوْنَ النَّذْرُ﴾، جَمْعُ (النَّذِيرِ)، فَهُوَ اسْمٌ مَصْدَرٌ بِمَعْنَى (الْإِنْذَارِ) مِنْ (أَنْذَرَ)؛ أَي: أَنَّ ﴿النَّذْرُ﴾ تَعْنِي الْإِنْذَارَاتِ الْمُتَكَرِّرَةَ، فَهُوَ جَمْعٌ بِاعْتِبَارِ التَّعَدُّدِ فِي الْإِنْذَارَاتِ، لَا فِي الْمُنْذِرِينَ؛ لِأَنَّ الْمُنْذَرَ هُنَا وَاحِدٌ، وَهُوَ مُوسَى ﷺ. وَوَجْهُ الْجَمْعِ: الدَّلَالَةُ عَلَى وَفَرَةِ الْإِنْذَارَاتِ وَكَثْرَةِ سُبُلِ التَّذْكِيرِ، وَهُوَ مِنْ بَابِ تَعَدُّدِ الْأَسْبَابِ وَتَنَوُّعِ وَسَائِلِ الدَّعْوَةِ وَالتَّذْكِيرِ، مِمَّا يَجْعَلُ عَاقِبَةَ الْمُكَذِّبِينَ أَشَدَّ وَأَخْزَى؛ لِأَنَّهُمْ مَا كَذَّبُوا بِإِنْذَارٍ وَاحِدٍ، بَلْ بِأَمْوَاجٍ مِنَ النَّذْرِ الْمُتَلَاخِقَةِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى﴾ [طه: 56]⁽²⁾.

موقع جملة ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا﴾ ممَّا قبلها:

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا﴾ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ اسْتِثْنَاءً بَيَانِيًّا جَوَابًا عَنْ سَوْأَلٍ مُقَدَّرٍ يُفْهَمُ مِنَ السِّيَاقِ، فَبَعْدَ أَنْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَ عَالَ فِرْعَوْنَ النَّذْرُ﴾ قَدْ يَتْبَادَرُ إِلَى ذَهْنِ السَّامِعِ: مَاذَا كَانَ

التَّحْذِيرُ وَالتَّنْبِيهُ
مِنْ مُقْتَضِيَّاتِ
الرَّحْمَةِ الرَّبَّانِيَّةِ

تَعَدُّدُ وَسَائِلِ
الْإِنْذَارِ يَقْطَعُ
الْأَعْدَارَ، وَيَزِيدُ
مَسْئُولِيَّةَ
الْمُكَذِّبِينَ

السِّيَاقُ الْقِرَآئِيُّ
يُبْقِي الْمَتَلَقِّي
حَاضِرَ الذَّهْنِ فِي
كُلِّ مَقْطَعٍ

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 319 / 29، وابن عادل، اللباب: 274 / 18.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 208 / 27.

مَوْقِفُهُمْ مِنْ هَذِهِ النُّذُرِ؟ وَمَاذَا فَعَلُوا بِهَا؟ وَكَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَتُهُمْ؟
فَجَاءَ الْجَوَابُ فِي الِاسْتِثْنَاءِ ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخَذَ عَزِيزٌ مُقْتَدِرٌ﴾، وَفَائِدَةُ الِاسْتِثْنَاءِ الْبَيَانِيَّ زِيَادَةُ تَشْوِيقِ الْمُتَلَقِّي وَانْتِقَالُهُ
الذَّهْنِيَّ مَعَ السِّيَاقِ، وَإِبْرَازُ أَثَرِ النُّذْرِ، وَمَا يَتَرْتَّبُ عَلَى التَّكْذِيبِ بِهَا.
وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا﴾ بَدَلًا اشْتِمَالٍ مِنْ جُمْلَةٍ
﴿جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ﴾؛ لِأَنَّ مَجِيءَ النُّذْرِ إِلَيْهِمْ مُلَابِسٌ لِلآيَاتِ،
وظُهُورُ الْآيَاتِ مُقَارِنٌ لِتَكْذِيبِهِمْ بِهَا، فَمَجِيءُ النُّذْرِ مُشْتَمِلٌ عَلَى
التَّكْذِيبِ؛ لِأَنَّهُ مُقَارِنٌ مُقَارِنُهُ⁽¹⁾، فَيَكُونُ مِنْ بَابِ كَمَالِ الْإِتِّصَالِ،
وَالأَوَّلُ مِنْ بَابِ شَبْهِ كَمَالِ الْإِتِّصَالِ، وَالتَّوَجُّيْهَانِ صَحِيحَا الْمَعْنَى.

بِلَاغَةُ التَّغْلِيبِ فِي الْحُكْمِ عَلَى الْجَمِيعِ:

إِسْنَادُ التَّكْذِيبِ إِلَى آلِ فِرْعَوْنَ مَعَ وَجُودِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ فِي قَوْلِهِ
تَعَالَى: ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا﴾؛ لِأَنَّ الْإِسْنَادَ إِلَى الْجَمْعِ ظَاهِرًا يَدُلُّ
عَلَى عُمُومِ الْحَالِ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ الْمُرَادُ جَمِيعَ الْأَفْرَادِ حَقِيقَةً⁽²⁾. وَالسَّرُّ
الْبَلَاغِيُّ فِي هَذَا الْإِسْنَادِ الْمَجَازِيِّ هُوَ إِسْنَادُ الْفِعْلِ لِلْأَغْلَبِ الْغَالِبِ،
فَالْغَالِبُ عَلَى آلِ فِرْعَوْنَ هُوَ التَّكْذِيبُ، فَحُكِمَ عَلَى الْجَمْعِ بِذَلِكَ،
وَإِنْ وَجَدَ فِيهِمْ مَنْ آمَنَ كَالرَّجُلِ الْمُؤْمِنِ فِي سُورَةِ غَافِرٍ، وَأَسِيَّةَ
بِنْتِ مُزَاحِمٍ، زَوْجَةَ فِرْعَوْنَ. وَذَكَرَ الرَّجُلُ الْمُؤْمِنُ وَامْرَأَةَ فِرْعَوْنَ فِي
مَوْضِعٍ آخَرَ هُوَ بَيَانُ اسْتِثْنَاءٍ خَارِجٍ عَنِ الْقَاعِدَةِ، لَا مُخَصَّصٌ لَهَا فِي
الْمَقَامِ الْبَيَانِيِّ هُنَا، وَالْمَقَامُ مَقَامُ تَهْوِيلٍ لِلْعُقُوبَةِ، وَبَيَانُ الْعَاقِبَةِ لِمَنْ
اسْتَكْبَرَ عَنِ الْحَقِّ، فَالْخِطَابُ مُوجَّهٌ لِمَنْ يَتَّبِعُ سِيرَةَ التَّكْذِيبِ، لَا لِمَنْ
نَجَا مِنَ الْمَصِيرِ.

الْحُكْمُ عَلَى
الْجَمَاعَةِ لَا يُبْكَرُ
وَجُودَ اسْتِثْنَاءٍ،
لَكِنَّهُ يُسَجَّلُ
لِلْوَقْفِ الْعَامِّ

نَوْعُ الْبَاءِ وَدَلَالَتُهَا:

الْبَاءُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا﴾ هِيَ بَاءُ التَّعْدِيَةِ،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 208 / 27.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 208 / 27.

ومعنى الإلصاق مُلازِمٌ لها، وهذا أبلغُ ممَّا لو قيل: (كذبوا آياتنا)، إذ يُشعرُ حرفُ الإلصاق بالمبالغة في الجُهود.

نُكْتةُ جمعِ الآياتِ وإضافتها إلى ضميرِ العظمة:

جُمِعَ لفظُ الآياتِ ثُمَّ أُضِيفَ إلى ضميرِ العظمة في قوله تعالى: ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا﴾، فالجمعُ لإحاطة كلِّ ما جاءَهُم من دلائلِ عقليةٍ وحسِّيَّةٍ وشرعيَّةٍ، فلا يبقى عُذْرٌ ولا مَهْرَبٌ، وإضافتها إلى ضميرِ العظمة (نا) يُكسِبُها شرفَ المكانة، وعظيمَ الشَّأن، فهي ليست مُجرَّدَ خوارقٍ معزولةٍ، بل هي مَنْسوبةٌ إلى الله سبحانه؛ فتكذيبُها اعتداءٌ على مَصْدَرِها الإلهي لا على الرُّسول فحسب.

دلالةُ التَّعبيرِ بلفظِ العُموم (كلّ):

استعملَ التَّعبيرُ القرآنيُّ لفظَ العُموم (كلّ) في قوله تعالى: ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا﴾؛ ليدلَّ على الاستيعابِ التَّامِّ والتَّعميمِ الكاملِ للآياتِ التي كَذَّبَ بها، فلم يؤمنوا بأيِّ آيةٍ، لا صُغرى ولا كُبرى، لا قديمة ولا جديدة، بل كَذَّبوا بالجميع. وتكذيبُهُم بآيةٍ انفلاقِ البحرِ خاصَّةً أبلغُ في العمى والعناد؛ لأنَّها آيةٌ عَيْنِيَّةٌ فُجَائِيَّةٌ حَسِّيَّةٌ، لا يُعَذَّرُ معها بِجَحْدٍ أو تَوْهُمٍ، ومع ذلك لم يتَّعظوا بها، بل دخلوها مُكذِّبين، فأغرقوا فيها مُكذِّبين⁽¹⁾.

بلاغةُ الكنايةِ في لفظِ العُموم:

النَّصُّ على العُموم بلفظِ (كلّ) في قوله تعالى: ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا﴾ كنايةٌ عن توبيخهم والتَّسجيلِ عليهم بالحُجَّةِ البالغةِ في استحقاقِهِم العذابَ؛ لأنَّ تكذيبَهُم ولو بآيةٍ واحدةٍ يكفي في الأخذِ المذكورِ، فكيف بالآياتِ كُلِّها⁽²⁾، فهُم بآغوا في الكُفر والتَّكذيبِ، كما أنَّ لفظَ ﴿كُلِّهَا﴾ كنايةٌ كذلك عن مُبالغةِ الرُّسول في التَّبليغِ،

تكذيبُ الآياتِ
الإلهيةِ عِلَّةُ
الأخذِ الشَّدِيدِ
عند صاحبِ
العقلِ الرَّشِيدِ

رَفَضُ كُلِّ آيَةٍ
بِرَهَانٍ عَلَى
الْعِنَادِ لَا الْجَهْلِ

رَفَضُ الآيَاتِ
كُلِّهَا كِنَايَةً
عَنِ الْمُبَالَغَةِ
فِي التَّكْذِيبِ
وَمُبَالَغَةِ الرُّسُلِ
فِي التَّبْلِيغِ

(1) ابن عاشور، التَّحْرِيزُ والتَّنْوِيرُ: 209 / 27.

(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 334 / 18.

وَالصَّبْرِ عَلَى الْمُكَذِّبِينَ؛ ففيه إيماءٌ إلى تبرئة الرُّسل من أيِّ قُصورٍ في البلاغ والإنذار.

نوع الفاء ودلالاتها:

الفاء في قوله: ﴿فَأَخَذْنَاهُمْ﴾ للتفريع على التّكذيب في قوله: ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾، والتفريع يُفيد السَّبَبُ؛ أي: تسبَّبَ عن تكذيبهم أَخَذَهُمْ وإهلاكَهُمْ⁽¹⁾.

بلادة الاستعارة في لفظ الأخذ:

استعيرَ لفظُ الأخذِ في قوله تعالى: ﴿فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ لمعنى العقاب والإهلاك والانتقام⁽²⁾؛ لأنَّ الأخذَ في أصله هو التَّناول باليد، فنُقِلَ إلى معنى المجاز وهو الاستيلاء عليهم بالعذاب، فشُبِّهَ الإهلاكُ والتَّعْذِيبُ بالأخذِ على سبيل الاستعارة التَّصْرِيحِيَّةِ التَّبْعِيَّةِ، ونكتةُ ذلك بيانُ الاقتدارِ الإلهيِّ بأنَّه أَخَذَ يَسِيرٌ عليه سبحانه، فكما أَخَذَهُمْ فهو يأخذُ غيرَهُمْ.

فائدة للمفعول المطلق:

أفادَ انِّصَابُ قوله تعالى: ﴿أَخَذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ على المفعوليَّةِ التَّأَكِيدِ على نوعِ الأخذِ، فالمفعولُ المطلقُ يُعَزِّزُ من قوَّةِ الفعلِ، ويدلُّ على عَظَمَةِ العذابِ الَّذِي لَا يُقَهَّرُ وَلَا يَفِرُّ مِنْهُ أَحَدٌ، وهذا يكشفُ مُستوى القسوةِ في العذابِ الَّذِي لاقاهُ فِرْعَوْنُ وقومُهُ بعدَ تكذيبِهِم المتواصلِ للآياتِ⁽³⁾.

بلادة إضافة المصدر إلى فاعله:

إضافةُ ﴿أَخَذَ﴾ إلى ﴿عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ بمعنى (من)؛ أي: أَخَذَا آتِيًا مِنْ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ، والإضافةُ من إضافة المصدرِ إلى فاعله، فالأخذُ

عقابُ الله قَبْضٌ
قاهرٌ لا مهربَ
منه لِمَنْ أَعْرَضَ
وَكَذَّبَ

تأكيدُ نوعِ
العقوبةِ يَزِيدُ
من رَهْبَتِهَا في
النفوسِ

الباطشُ
بالباطشِ عدلٌ
من الرَّحِيمِ
بعبادهِ الْمَسَاكِينِ

(1) الألوسي، روح المعاني: 14 / 91.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27 / 208.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27 / 209.

عزیزٌ مُقْتَدِرٌ، وفيه إيماءٌ لِفِرْعَوْنَ ومُناسبةٌ لِمَقَامِهِ، فكما كان يَبْطِشُ بالنَّاسِ كعادة الملوك الجبابرة، الَّذِينَ يَخْطِفُونَ النَّاسَ، وَيَبْطِشُونَ بهم بِقُوَّةٍ لَا يُمْكِنُ مُقاومتُها؛ فَإِنَّ اللَّهَ تعالى قد أَخَذَ فِرْعَوْنَ وآلَهُ بِالْقُوَّةِ نَفْسِها الَّتِي لَا مَرَدَّ لَهَا.

تعيين مَرَجِ الضَّمِيرِ ودلالته:

يرجع الضميرُ
إلى آلِ فرعونَ
تحقيقاً،
وإلى الأقوامِ
السَّابِقِينَ إيماءً

الضَّمائِرُ في قوله تعالى: ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ﴾
تَحْتَمِلُ أَنْ تَرْجَعَ لِأَخِرِ مَذْكَورٍ، وَهُمْ آلُ فِرْعَوْنَ، وَتَحْتَمِلُ عَوْدَهَا إِلَى جَمِيعِ الْأَقْوَامِ الْمُتَقَدِّمِ ذِكْرُهَا⁽¹⁾ بِطَرِيقِ الْإِيمَاءِ، فَتَكُونُ خَاتِمَةً لِلْقِصَصِ الْوَارِدَةِ فِي السُّورَةِ، وَتَلْخِيصًا لِلْجِزَاءِ الْعَامِّ لِمَنْ كَذَّبَ الرُّسُلَ، خُصُوصًا بَعْدَ اسْتِعْرَاضِ قِصَصِ الْمَاضِينَ (قوم نوح، عاد، ثمود، لوط، فرعون)، فَكَانَ خَتَامُ الْقِصَصِ بِجُمْلَةٍ جَامِعَةٍ مانِعَةٍ: ﴿فَأَخَذْنَاهُمْ أَخَذَ عَزِيزٌ مُقْتَدِرٌ﴾؛ لَتَكُونَ مِيزَانًا يوزَنُ بِهِ كُلُّ طَافِغِيَّةٍ وَمُكْذِبٍ يَأْتِي بَعْدَهُمْ.

والقولُ بَعُودَةِ الضَّمِيرِ إِلَى أَقْرَبِ مَذْكَورٍ بِنَاءً عَلَى الْقَاعِدَةِ النَّحْوِيَّةِ الْمَشْهُورَةِ، وَالْقَوْلُ بَعُودَةِ الضَّمِيرِ إِلَى جَمِيعِ الْمُتَقَدِّمِ ذِكْرُهُ بِنَاءً عَلَى الْعُمُومِ السِّيَاقِيِّ، وَالْمَعْنِيَانِ مُتَايِلَانِ، وَرَجُوعُ الضَّمِيرِ إِلَى أَقْرَبِ مَذْكَورٍ أَظْهَرَ فِي الْكَلَامِ الْجُزْئِيِّ، وَإِلَى جَمِيعِ الْمُتَقَدِّمِ ذِكْرُهُ أَظْهَرَ فِي الْمَقْصِدِ الْكُلِّيِّ.

نُكْتَةُ الْجَمْعِ بَيْنَ صِفَتَيْ «عَزِيزٍ» وَ«مُقْتَدِرٍ»:

قُوَّةُ اللَّهِ تُرْهِبُ
الطَّغَاةَ وَتُطْمِئِنُّ
أَهْلَ الْإِيمَانِ

الْجَمْعُ بَيْنَ صِفَتَيْ عَزِيزٍ وَمُقْتَدِرٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَأَخَذْنَاهُمْ أَخَذَ عَزِيزٌ مُقْتَدِرٌ﴾؛ لِلْجَمْعِ بَيْنَ التَّهْدِيدِ وَالتَّطْمِينِ. فَفِيهِمَا تَهْدِيدٌ لِمَنْ يَرَى نَفْسَهُ قَوِيًّا فِي الْأَرْضِ، وَتَطْمِينٌ لِلْمُؤْمِنِينَ أَنَّ قُوَّةَ اللَّهِ لَا تُجَارَى، وَلَا يُمْلِئُ مِنْهَا مُتَجَبِّرٌ. فَالْعَزِيزُ هُوَ الَّذِي لَا يُغَالَبُ، وَلَا يُهْزَمُ. وَالْمُقْتَدِرُ: هُوَ الَّذِي يُحْسِنُ أَنْزَالَ الْعِقَابِ بِقُدْرَةٍ دَقِيقَةٍ، وَيُتْرَلُّهُ عَلَى وَجْهِ

(1) ابن عطية، للحزر الوجيز: 220 / 5

الحكمة. فجمع هنا بين وصفين متباينين في اللفظ، ومتّحدّين في تقرير الغلبة للمؤمن، وإمضائها على المستكبر.

غرض تنكير الاسمين الجليّين:

نُكِّرَ الاسمان الجليّان ﴿عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ﴾؛ لإفادة التّفخيم؛ أي: أخذًا صادرًا عن عِزَّةٍ لا تُدافَع، واقتدارٍ لا يُغالب، كأنّهما عِزَّةٌ واقتدارٌ لا نظيرَ لهما.

نكتة تقديم صفة العِزَّة:

قدّم ذكر صفة العِزَّة على الاقتدار في قوله تعالى: ﴿فَأَخَذْنَاهُمْ أَخَذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ﴾؛ لأنّ الأخذ ناشئٌ أوّلاً من قهرٍ وغلبةٍ لا تُدافَع، ثمّ جاء الاقتدارُ مُكمِّلاً ليبيّن أنّ هذا القهرَ مُقتَرِنٌ بِقُدْرَةٍ تامّةٍ لا يُعجزُها شيءٌ، فهو ترتيبٌ منطقيٌّ من القهر إلى التّمكّن. ولذا فُسِّرَ ﴿عَزِيزٍ﴾ بالذي لا يُغلب، و﴿مُقْتَدِرٍ﴾ بالذي لا يُعجز⁽¹⁾.

دلالة التعبير بصيغة (افتعل):

كلمة ﴿مُقْتَدِرٍ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَخَذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ اسم فاعل من (اقتدر) الخماسي، على زنة (افتعل)، وهو أبلغ من (قادر) و(قدير)؛ لزيادة مَبْنَاهُ التي تُؤدّن بزيادة معناه. وصياغته من (افتعل) تدلُّ على المُبالغة في الفعل، والتّمكّن منه، وإنفاذه بقوة وإحكام. ولم يقل: (أخذ عزيزٌ قديرٌ) بدلاً من ﴿مُقْتَدِرٍ﴾؛ لأنّ (مُقْتَدِرٌ) تدلُّ على إظهار الفعل وإيقاعه في الخارج، وأمّا (قدير) فهي وإن كانت صفةً مُبالغةً أو صفةً مُشبّهةً، على زنة (فعل)، تدلُّ على تمام القدرة ودوامها وثبوتها ذاتاً، إلّا أنّها قد تُقال لمن له قُدْرَةٌ ذاتيّةٌ، لكن قد لا يُباشِرُ الفعل، أو لا يُظهرُ أثرَ قُدْرته. فصيغة ﴿مُقْتَدِرٍ﴾ "أبلغ في هذا السياق من (قدير)"⁽²⁾، رغم أنّ (قديرًا)

أخَذَ إِلَهٌ لَا
يُقَاوَمُ؛ لِعِزَّتِهِ،
وَلَا يُفْلِتُ مِنْهُ
أَحَدٌ؛ لِاقْتِدَارِهِ

تَجَلَّى الْقُدْرَةُ
الْإِلَهِيَّةُ فِي صُورَةٍ
فَعَلِيَّةٍ ظَاهِرَةٍ

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البضاوي: 334 / 18، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 209 / 27.

(2) القونوي، حاشيته على تفسير البضاوي: 334 / 18.

على صيغة المبالغة؛ لأنَّ الغرض هنا ليس المبالغة المجردة، بل إظهار القدرة في صورة الفعل.

بلادة للناسبة بين منطوق الفاصلة ومضمون القصة:

ادعاء القوة لا
يُنْجِي مِنَ الْأَخْذِ
الإلهي إذا غاب
الحقُّ

في قوله تعالى: ﴿فَأَخَذْنَاهُمْ أَخَذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ مقابلة بين مقام الادعاء ومقام الحقيقة، ففرعون قال في كِبَرِهِ: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ [النازعات: 24]، وادَّعى العِزَّةَ والاقْتِدَارَ، فجاء الرُّدُّ الإلهي في خاتمة العذاب ﴿فَأَخَذْنَاهُمْ أَخَذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ﴾؛ أي: العِزَّةَ والاقْتِدَارُ الحقُّ لله وحده، لا لِمَنْ اغْتَرَّ بِمُلْكِهِ أَوْ سُلْطَانِهِ، ففيه إفحامٌ له ولسائر مَنْ سارَ على دربه، كما في ذلك إبرازٌ للمُناسبة النَّفْسِيَّةِ وَالسِّيَاقِيَّةِ بين ألفاظِ الخاتمة ومَطْلَعِ القِصَّةِ، فالْفِرْعَوْنُ عُرِفُوا بِالْكَذِبِ مع الاستكبار والسُّخْرِيَّةِ، فَنَاسَبَ أَنْ يَكُونَ أَخَذَهُمْ بِأَقْصَى دَرَجَاتِ الْقُوَّةِ الَّتِي لَا مَرَدَّ لَهَا، فَجَاءَ التَّعْبِيرُ بِ﴿أَخَذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ تَجْلِيَةً لِلْبَطْشِ الإلهيِّ الْمُتَنَاسِبِ مَعَ مُسْتَوَى عِنَادِهِمْ وَتَكْذِيبِهِمْ⁽¹⁾.

موقع جملة ﴿أَكْفَارُكُمْ﴾ ممَّا قَبْلَهَا:

الانزعاج بالماضين
يُبَيِّنُ الصِّيرَ الَّذِي
يَنْتَظَرُ الْمُكْذِبِينَ

قوله: ﴿أَكْفَارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكَ﴾ استئنافٌ مُقَرَّرٌ لحاصل ما قبله مِنَ الْقِصَصِ الَّتِي مَرَّتْ، فهو فصلُ الْخُطَابِ الَّذِي يُسَجِّلُهُ الْمُخَاطَبُ عَلَى الْمُخَاطَبِ، وَغَايَتُهُ فِي خِتَامِ الْكَلَامِ مَعَهُ، فَبَعْدَ سَرْدِ قِصَصِ الْمُكْذِبِينَ مِنْ نُوْحٍ إِلَى آلِ فِرْعَوْنَ، قِيلَ لِلْمُخَاطَبِينَ عَلَى جِهَةِ النَّفْيِ وَالْإِنْكَارِ وَتَقْرِيرِ الْمُخَاطَبِ: أَنْتُمْ خَيْرٌ مِنْ هَؤُلَاءِ إِذْ كَفَرُوا فَعَوَّقُوا، وَتَكْفُرُونَ فَتَفْلِتُوا! تِلْكَ إِذَنْ قِسْمَةٌ ضِيْزِيَّةٌ وَلِأَجْلِ إِبْرَازِ ذَلِكَ التَّسْجِيلِ كَتَقْرِيرٍ مُسْتَقِلٍّ وَبَيَانٍ فَاصِلٍ، فَصَلَّتِ الْجُمْلَةُ وَلَمْ تُعْطَفْ⁽²⁾.

(1) ابن عثيمين، تفسير سورة القمر، ص: 289.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 209 / 27.

نكتة العدول في الخطاب:

في قوله: ﴿أَكْفَارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكُمْ﴾ عدولٌ في أسلوب الكلام من كونه موجَّهاً للرَّسول ﷺ - في قوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُكْرٍ﴾ [القمر: 6]، وما بعده يدخلُ في مضمونِ الخطاب - إلى خطابِ المُشركين؛ لينتقلَ عن التَّعريضِ بهم إلى التَّصريح؛ اعتناءً بمَقامِ الإنذار والإبلاغ⁽¹⁾؛ لمباغِتةِ القومِ بعدَ سرِّدِ القصصِ السَّابقِ بقصدِ التَّوبيخِ والتَّقريعِ، والتَّنبيهِ والتَّحذيرِ والتَّهديدِ.

بلاغة الاستفهام ودلالته:

الاستفهام في قوله تعالى: ﴿أَكْفَارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكُمْ﴾؛ للإنكار الوُفُوعِيَّ التَّحْقِيقِيَّ، فلا يحتاجُ إلى إقرارِ المُخاطَبِ واعتقاده؛ لأنَّه حاصلٌ بالفعل، وفائدته: إثباتُ مُغالطةِ المُخاطَبِ ومُكابرته فيما لا يحتاجُ إلى برهنةٍ واستدلالٍ، فيكون هذا الاستفهامُ في معنى النَّفي؛ أي: لستم خيراً من هؤلاء الكفرة، بل أنتم مُتساوون في استحقاقِ الجزاء؛ لتساويكم في أصلِ الجناية والتَّكذيب⁽²⁾. وتقوى هذا الإنكارُ والنَّفيُّ بإيراده في سياقِ المقارنة، فقوله: ﴿خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكُمْ﴾ هو في الحقيقة إنكارٌ للمُفاضلة؛ فالمعنى: لستم بخيرٍ منهم. وهذا الأسلوبُ أقوى من أن يُقال: (أنتم شرٌّ منهم)؛ لأنَّ الإنكارَ بالنَّفي في سياقِ التَّفضيلِ أبلغُ في التَّوبيخِ.

فَنُ تَجَاهِلِ الْعَارِفَ:

يَحْتَمِلُ أن يكونَ الاستفهامُ في قوله تعالى: ﴿أَكْفَارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكُمْ﴾ على حقيقته، فيُفْهَمُ في ظاهرِ التَّركيبِ أنَّه طلبِي يسألُ عن الأفضليَّة، لكنَّه في السِّياقِ ليس للسُّؤالِ الحقيقِيِّ بل هو

مِنَ التَّلْمِيحِ إِلَى
التَّصْرِيحِ تَتَجَلَّى
شِدَّةُ الْإِنْذَارِ
الْإِلَهِيِّ

الْإِنْكَارُ بِالنَّفْيِ فِي
سِيَاقِ التَّفْضِيلِ
أَبْلَغُ فِي التَّوْبِيخِ

إِظْهَارُ عَدَمِ
الْعِلْمِ فِي خُطَابِ
الْمُكَذِّبِ تَهْكُمُ
وَتُوبِيخُ

(1) أبو حيان، البحر المحیط: 47/10، وأبو السَّعود، إرشاد العقل السليم: 174/8، وابن عاشور، التَّحْرِيرُ وَالتَّنْوِيرُ: 209/27.

(2) القنوني، حاشيته على تفسير البضاوي: 335/18.

توبيخِي، مَسُوقٌ سَوَقَ المَعلومِ مَسَاقٍ غَيرِهِ. وهذا من فنون البلاغة المعروف باسم: (تجاهل العارف)؛ أي: توجيهُ السَّائلِ المُقتَضِي في الظَّاهر عَدَمَ العِلْمِ بما هو في الحقيقة بَغَرَضِ التَّهْكُمِ والتَّعْرِيزِ. أو ما يُسمَّيه بعضُ البلاغيينَ بـ(سَوَقِ المَعلومِ مَسَاقِ المَجهولِ). فبهذا الأسلوب يُقَلَّبُ الاستفهامُ إلى تقريرٍ للتَّوبيخِ والتَّقرِيعِ، كأنَّه قيل: هل تَظُنُّونَ أَنَّكُمْ خَيْرٌ من قومِ نوحٍ أو عادٍ أو ثمودٍ أو قومِ لوطٍ، حتَّى تُسْتَنَتُوا مِنَ العذابِ؟! في الحقيقة، لا فَضْلَ لكَفَّارٍ مَكَّةَ على كَفَّارِ الأُمَمِ السَّالِفَةِ، بل إِنَّ أسبابَ العذابِ حاصِلَةٌ عِنْدَهُمْ أَوْفَرَ وَأَوْضَحَ؛ فَقَدْ بَلَغَتْهُمُ الرِّسَالَةُ، وَجَاءَتْهُمُ الآيَاتُ، وَسَمِعُوا الْقَصَصَ وَالْمَوَاعِظَ، ثُمَّ كَذَّبُوا وَاسْتَكْبَرُوا كَمَا فَعَلَ أَوْلَئِكَ، أو أَشَدَّ⁽¹⁾.

براعة إضافة اللفظ إلى ضميره:

الإضافة البيانية
تُمَيِّزُ صِنْفًا خَاصًّا
في المُخَاطَبِينَ

ضمير الخطاب الجمعيّ في: ﴿أَكْفَارُكُمْ﴾ يَرْجِعُ إلى أهل مَكَّةَ، وهم أَنفُسُهُمُ الكَفَّارُ؛ فإضافة لفظ (كفار) إلى ضميرهم إضافة بيانية؛ لأنَّ المُضَافَ صِنْفٌ من جنسٍ من أَضِيفَ هو إليه، فهو على تقدير (من) البيانية، والمعنى: الكَفَّارُ (منكم) خيرٌ من الكَفَّارِ السَّالِفِينَ؛ أي: أَأَنْتُمْ الكَفَّارُ خَيْرٌ من أَوْلَئِكَ الكَفَّارِ⁽²⁾، والإتيانُ بالوصف مُضَافًا إلى ضميرهم ﴿أَكْفَارُكُمْ﴾ بدلًا من الإقتصار على (أَأَنْتُمْ خَيْرٌ) فيه تعريضٌ وتقرِيعٌ أَشَدُّ؛ لأنَّهُمْ لَمْ يُخَاطَبُوا بضمير الذات الجماعيّ، بل وُصِفُوا بِوصفِهِمُ الَّذِي يُعَيِّرُهُمْ وَيَكْشِفُ جُرْمَهُمْ: (كفاركم)، وفيه إيماءٌ إلى قيمة هِدَائِيَّةٍ، وهي تنزيلُ المُخَاطَبِ مَنْزِلَةً غَيرَ الكافر؛ لِتَنْزِيهِهِ عَنِ نَجَاسَةِ الكُفْرِ - الَّذِي هو واقعٌ فيه - فيما يُفْتَرَضُ أَنْ يكون عليه من الإيمان.

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8 / 174، وابن عاشور، التَّحْرِيزُ والتَّنْوِيرُ: 210 / 27.

(2) ابن عاشور، التَّحْرِيزُ والتَّنْوِيرُ: 210 / 27.

بلادةٌ فَنَ التَّجْرِيدِ:

يجوزُ أن يكونَ خطابُ المُشركين بوصف الكفر مع إضافته إلى ضميرهم من باب التَّجْرِيد، وهو أسلوبٌ بدعيٌّ يُنزلُ فيه الشَّيْءُ مَنْزِلَةً كأنَّ له شيئاً آخرَ من جنسه، ثمَّ يُضَافُ إليه لِمَبالَغةٍ ما، كقول القائل: (لَكَ في نَفْسِكَ صَاحِبٌ يُعَاتِبُكَ)؛ أي: تُجَرِّدُ من نَفْسِكَ صَاحِباً خيالياً يلوِّمُكَ، والمقصودُ أنَّكَ أنتَ تلومُ نَفْسَكَ، كذلك قوله: ﴿أَكْفَارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكَ﴾ يمكن أن يُفهمَ - على وجه التَّجْرِيد - أنَّ الخطابَ جَرَّدَ مِنَ القومِ صِنْفاً خاصّاً سَمَاهُ (كُفَّاراً)، ثمَّ أُضِيفُوا إليهم، فقال: (كُفَّاركم)، فصار المعنى: مِنْكُمْ صِنْفٌ مَخْصُوصٌ هو كُفَّارُكُمْ، أَفْهَمَ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكَ الكُفَّارِ؟!

وهذا أبلغُ في الذَّمِّ والتَّوْبِيخِ؛ لأنَّ فيه إبرازَ الكفر كصفةٍ لازمةٍ تامَّةٍ فيهم، كأنَّها جنسيَّةٌ مُستقلَّةٌ، ويجعلهم كأنَّ كُفْرًا قد تملَّكهم أو انبثقَ منهم، فصار كالصَّاحِبِ لهم، كأنَّ كُفْرًا خالصاً مُجَرَّداً قد أُخْرِجَ منهم ثمَّ أُعيدَ إليهم بالإضافة⁽¹⁾.

دلالة صيغة التَّفْضِيلِ:

كلمة ﴿خَيْرٌ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَكْفَارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكَ﴾ اسمُ تفضيل، وأصله (أَخْيَرٌ) بوزن اسم التَّفْضِيلِ، فَحُذِفَتِ الهمزةُ لِكَثْرَةِ الاستعمال⁽²⁾، وهي في هذا السِّياق تَحْتَمِلُ الدَّلالةَ على التَّفْضِيلِ باعتبارين: الأوَّل: حيث كان الكلامُ استفهاماً جاز فيه مجيءُ لفظة التَّفْضِيلِ بين الكُفَّارِ المُخاطَبين والكُفَّارِ السَّالِفينَ في الخيريَّة؛ لأنَّ المُستفهمَ جائزٌ له أن يوقِفَ مُحاورَه على ما شاء؛ ليرى هل يُجيبُه بالصَّوابِ أو بالخطأ⁽³⁾. والثَّاني: أنَّه لما وقعَ التَّساوي بين الكافرين

تجريدُ المُشركين
لِلْكَفْرِ يُؤكِّدُ أنَّهم
كيانٌ مَوْصُومٌ لا
صِلَة له بِالنَّجاةِ

احتمالُ المُفاضلةِ
وعدمها عائدٌ
إلى تشخيصِ
المعاني وربطها
بالمقاصدِ

(1) الألوسي، روح المعاني: 91 / 14.

(2) ابن عاشور، التَّحْرِيرُ والتَّنْوِيرُ: 335 / 18.

(3) ابن عطية، المحرَّرُ الوجيز: 203 / 4.

الحاضرين والكافرين الغابرين، في أنَّهما فريقان مُنفصلان، صحَّ وقوعُ التَّفضيل بينهما على هذا الأصل⁽¹⁾.

ويَحْتَمِلُ أن تكون ﴿خَيْرٌ﴾ منزوعَ المُفاضلة، فاسمُ التَّفضيل قد يُستعملُ لا لتفضيل شيءٍ على شيءٍ آخر مُعَيَّن، بل قد يُرادُ به مُجرَّد الزيادة في أصل الوصف، فيُراد باسم التَّفضيل تجاوزُ صاحبه وتباعدُه عن الغير في الفعل، لا بمعنى تفضيله بالنسبة إليه بعد المشاركة في أصل الفعل، بل بمعنى: أنَّ صاحبه مُتباعِدٌ في أصل الفعل، مُتزايدٌ إلى كماله فيه على وجه الاختصار، فيحصل كمالُ التَّفضيل⁽²⁾، فيكون المعنى هنا نفي أن يكون أحد الفريقين مُتمايزًا على الآخر في أصل الصِّفة؛ وهي الكُفْرُ البَواح.

نوع ﴿مَنْ﴾ ودلائلها:

التَّفضيل يكون

لما بعد ﴿مَنْ﴾

﴿مَنْ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَكْفَارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكُمْ﴾ هي ﴿مَنْ﴾ التَّفضيليَّة؛ لابتداء غاية التَّفضيل، فهي حرفُ واصلٍ بين المُفضَّل والمُفضَّل عليه؛ لإفادة المُقارنة والترجيح بينهما، وغاية التَّفضيل هي ما بعد اسم التَّفضيل ﴿أُولَئِكُمْ﴾.

دلالة التَّعبير باسم الإشارة البعيد:

اجتماعُ البُعْدِ
الزَّمانيِّ والمَعنويِّ
بحسب السِّياق
والمَقْصودِ

التَّعبيرُ باسم الإشارة البعيد ﴿أُولَئِكُمْ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَكْفَارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكُمْ﴾؛ لإشارته إلى البُعْدِ زمنيًّا ومَقامًا، فالمَقْصود: المذكورون من قوم نوح إلى فرعون ممَّن حقَّ عليهم العذاب، وهؤلاء بُعْداءُ في المنزلة والتَّاريخ⁽³⁾، ويَحْمِلُ استعمالُ اسم الإشارة للبعيد معنى البُعْدِ المَعنويِّ المجازيِّ، بالإضافة إلى البُعْدِ الزَّمانيِّ الحقيقيِّ؛ فَهُمْ بُعْداءُ عن الحقِّ، فشأنُهُم الإبعادُ عن مَواطِن الكرامة.

(1) الرَّجَّاح، معاني القرآن: 4/ 60، وابن الجوزيِّ، زاد المسير: 3/ 314.

(2) الكفويِّ، الكلِّيَّات، ص: 39، وفاضل السَّامرائي، معاني التَّحْو: 4/ 313.

(3) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 18/ 335.

مَوْقِعُ جَمَلَةٍ «أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ»:

قوله: «أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ» إضرابٌ انتقاليٌّ لا إضرابٌ إبطاليٌّ، فهو انتقالٌ من تعريضِ بتوهمِ الأفضليَّةِ «أَكْفَارُكُمْ خَيْرٌ» إلى نفيِ دعوىِ ثانيَّةٍ باطلةٍ، وهي: أنَّهم في أمانٍ مِنَ العذابِ الإلهيِّ، وكأنَّ لهم صكَّ براءةٍ، فيكون هذا مِنَ التَّبْكِيتِ والسُّخْرِيَةِ من شُعُورِهِم الزَّائِفِ بِالْأَمَانِ مِنَ العذابِ⁽¹⁾.

غَرَضُ الاسْتِفْهَامِ وَدَلَالَتُهُ:

في قوله تعالى: «أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ» «أَمْ» مُنْقَطِعَةٌ لِلإِضْرَابِ الانتقاليِّ، بمعنى: (بل) وهمزة الاستفهام؛ أي: بل ألكم؟⁽²⁾ والجمعُ بين الاستفهامِ و«أَمْ» بعد استفهامٍ آخر فيه تعاقُبٌ لأساليبِ البيانِ في تحقيقِ غَرَضِ التَّوْبِيخِ، والاستفهامُ هنا: إنكارِيٌّ يَنْكِرُ عليهم هذا الشُّعُورَ الكاذبَ، وتقريرِيٌّ يَقْطَعُ بَعْدَهُ وجودَ مثلِ هذا البراءةِ⁽³⁾.

دَلَالَةُ التَّعْبِيرِ بِحَرْفِ الظَّرْفِيَّةِ:

وظيفةُ حَرْفِ الظَّرْفِيَّةِ في قوله تعالى: «أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ» ربطُ البراءةِ بِالْمَكَانِ أو النُّطَاقِ، كأنَّه قيل: هل لكم نصيبٌ للبراءةِ داخلِ الزُّبُرِ؟ لِتَعْيِينَ الْمَكَانِ الَّذِي يُسْأَلُ عَنْهُ.

فَائِدَةُ تَقْيِيدِ الْبَرَاءَةِ بِكَوْنِهَا «فِي الزُّبُرِ»:

فُقِدَتِ البراءةُ بِكَوْنِهَا فِي الزُّبُرِ في قوله: «أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ»، فلم يأتِ السُّؤَالُ عن براءةٍ مُطْلَقَةٍ، بل عن براءةٍ مذكورةٍ في كُتُبٍ مُعْتَبَرَةٍ؛ أي: في وحيِ إلهيٍّ مُنْزَلٍ، لا مُجَرَّدِ مَزَاعِمٍ أو أُمَانِيٍّ. وهذا فيه ردٌّ على مَنْ يظُنُّ أَنَّ نَجَاتَهُ قَائِمَةٌ عَلَى تَقْلِيدٍ أو

تَوْهَمُ الْبَرَاءَةِ
يَكْشِفُ الْوَجْهَ
الْقَاتِلَ لِلْأَمَانِ
الْكَاذِبِ

نَقْضُ شُعُورِ
الْأَمَانِ بِإِثْبَاتِ
زَيْفِ الْأَوْهَامِ

تَأْصِيلُ الْمَعْنَى
الْعَقْدِيَّةِ أَصْلًا فِي
خِطَابِ الْعَقْلِ
الْبَاحِثِ عَنِ
النَّجَاةِ

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8 / 174، والآلوسي، روح المعاني: 14 / 91، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 27 / 210.

(2) الخطيب وآخرون، التفصيل في إعراب التنزيل: 27 / 173.

(3) الطَّيْبِيُّ، فتوح الغيب: 15 / 140، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8 / 174، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 27 / 211.

ادّعاءً أو إرثٍ دينيٍّ بلا حجةٍ. ولوقال: (أم لكم براءة؟) لاحتتمل أن تكون مَزْعومةً أو مَظنونَةً، لكن قوله: ﴿فِي الزُّبْرِ﴾ قيدٌ مهمٌ يدلُّ على التَّوثيقِ والمَرَجِعيَّةِ، ويُبطلُ الحُجَجَ المَعْتَمَدةَ على الأهواءِ، أو الرُّؤْيِ الشَّخْصِيَّةِ، أو المَوْرُوثَاتِ المَشْكُوكِ فيها، مع التَّعْرِيزِ بأنَّ البراءةَ مكتوبةٌ في الزُّبْرِ لِلَّذِينَ آمَنُوا. وفي القيد تنبيهٌ إلى حال الكافر والمؤمن؛ فالكافر آمنٌ في الدُّنْيَا، مع أنَّه لا يَمْلِكُ براءةً. والمؤمن خائفٌ في الدُّنْيَا، مع أنَّه يَمْلِكُ وعدًا بالنَّجاةِ⁽¹⁾.

معنى تعريف لفظ ﴿الزُّبْرِ﴾:

(ال) في ﴿الزُّبْرِ﴾ لحقيقة الجنس؛ أي: جنس الكتب السماوية، أو للعهد؛ أي: ما سبق لهم به علمٌ من هذه الكتب.

بلاغة فن الاحتباك:

في قوله تعالى: ﴿أَكْفَارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبْرِ﴾ بديع الاحتباك، ففي الطرف الأول من الترديد ﴿أَكْفَارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكُمْ﴾ ذُكِرَتِ الْخَيْرِيَّةُ، ولم يُذَكَّرْ أَنَّ أُولَئِكَ لَيْسَتْ لَهُمْ بَرَاءَةٌ. وفي الطرف الثاني من الترديد ﴿أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبْرِ﴾ ذُكِرَتِ الْبَرَاءَةُ، ولم يُذَكَّرْ أَنَّ أُولَئِكَ لَيْسُوا بِخَيْرٍ مِنْهُمْ. وعليه فوجه الاحتباك إثبات الخيرية في الشق الأول، فهي دليلٌ على حذفها في الثاني، وإثبات البراءة في الشق الثاني، فهي دليلٌ على حذفها في الأول؛ والمعنى: أَكْفَارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكُمْ، وليس لكم براءة في الزُّبْرِ؟ أم لكم براءة في الزُّبْرِ، ولستم بخيرٍ منهم؟⁽²⁾.

موقع جملة ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ﴾ ممَّا قبلها:

قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ﴾ إضرابٌ انتقاليٌّ من تبكيثٍ إلى تبكيثٍ، فالآية جاءت بصيغة الإضراب: ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ

الحذفُ البليغُ
يُكَثِّفُ المعنى ولا
يُجِلُّ به

الانتقال من
التَّوْبِيخِ إلى
كشف الغرور
العمليِّ

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 320 / 29.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 130 / 19.

جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ، والتقدير: (بل يقولون) على تأويل همزة استفهامية بعد حرف الإضراب؛ أي: بل يقولون هذا القول - وليس لهم أن يقولوه. و**﴿أَمْ﴾** هنا مُنْقَطِعَةٌ، تفيد الانتقال إلى نوع جديدٍ مِنَ التَّوْبِيخِ⁽¹⁾. ويجوز أن تكون **﴿أَمْ﴾** هنا مُتَّصِلَةٌ لا تفيد إضراباً ولا انقطاعاً، بل تُفيد طلب تعيين أحد هذه الأمور في الوقوع، وهو ما رجَّحه القونوي⁽²⁾.

بلادة الالتفات من الخطاب إلى الغيبة:

كان الخطاب موجَّهاً إلى أهل مكة في قوله: **﴿أَكْفَارُكُمْ﴾** وقوله: **﴿أَمْ لَكُمْ﴾** ثم التفت السياق إلى الحديث عنهم بصيغة الغيبة: **﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ﴾**. وهذا الالتفات فيه صرفٌ للوجه عنهم، كمن أعرض عن محاورٍ لم يعد يُحتفى بخطابه. وفيه إشعارٌ بالإعراض عن مقامهم وانحدار رُتبتهم. كما فيه نقل قبيح قولهم إلى الغير، ممَّا يزيد في التوبيخ، كأنه يقول عنهم: ليسوا أهلاً أن يواجهوا، بل يتحدَّث عنهم لا إليهم⁽³⁾.

دلالة التعبير بالفعل المضارع:

الفعل المضارع في قوله تعالى: **﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ﴾** يدلُّ على الاستمرارية؛ أي: يقولون على الدوام مُتفاخرين، فأفاد شدة العناد وقوة الفخر وبالعُزَّ والغرور.

فائدة التعبير بالجملة الاسمية:

التعبير بمَقُول القول جملةً اسميةً مُستَهْلَةً بضمير جماعة المتكلمين **﴿نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ﴾** يدلُّ على تأكيد الذات والاعتداد بها، مع إظهار صفة الانتصار كحقيقة مُفترضةٍ لديهم في موقع الثبوت واليقين، وكأنَّ الجملة الاسمية جاءت لتُعزِّزَ غرورهم وأدعائهم

الإعراض عن
المُخاطَب المُكذَّب
توبيخٌ لمقامه

تأكيد ثبات
الادعاء الزائف،
وفضح الغرور
الجارف

(1) الألوسي، روح المعاني: 92 / 14.

(2) القونوي، حاشيته على تفسير البضاوي: 336 / 18.

(3) القونوي، حاشيته على تفسير البضاوي: 336 / 18.

الزَّائِفَ، وتجعلَ المبالغةَ في اعتدادهم بالانتصار واضحةً للسَّامِعِ، فتزِيدُ من وضوحِ التَّنَاقُضِ بين ادِّعائِهِم والواقعِ.

بلاغة استعمال مفردة ﴿جَمِيعٌ﴾:

آثَرَ النَّظْمُ الكريمُ ذِكْرَ كلمة ﴿جَمِيعٌ﴾ في قوله تعالى: ﴿نَحْنُ جَمِيعٌ مُنتَصِرُونَ﴾؛ للجمع بين معنى الاجتماع على الباطل في حرب الرسالة، والاتِّفاقِ عليه دون تفرُّقٍ.

بلاغة جناس الاشتقاق:

في قوله تعالى: ﴿نَحْنُ جَمِيعٌ مُنتَصِرُونَ ١١ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ﴾ جناسٌ اشتقاقِيٌّ بين ﴿جَمِيعٌ﴾ و﴿الْجَمْعُ﴾، فاللفظانِ اشتقَّا مِنَ الجذرِ نفسه؛ فـ(جميع) صفة تدلُّ على اجتماع الأفراد^(١). و(الجمع) مصدرٌ يدلُّ على الاجتماع، وقد سُمِّيَ به الفاعِلون (الجماعة)^(٢). والجناسُ هنا يربطُ بين ادِّعاء المُكذِّبين بالجمعيَّة الشَّامِلة للانتصار ﴿جَمِيعٌ﴾، والواقع الذي سيواجهونه كمجموعةٍ مُتَجَمِّعةٍ ﴿الْجَمْعُ﴾، فناسبَ نقضَ ادِّعائِهِم بكلمةٍ من جنسٍ ما ادَّعَوْه.

دلالة إفراد لفظ ﴿مُنتَصِرُونَ﴾:

كان مُقْتَضَى الظَّاهر - بناءً على المعنى - أن يُقال: (نحن جميعٌ مُنتَصِرُونَ)، باعتبار أن ﴿نَحْنُ﴾ جماعة، و﴿جَمِيعٌ﴾ بمعنى: (مُجْتَمِعُونَ)، فيُنَاسِبُهُ الجمعُ في (مُنتَصِرُونَ). لكنَّ النَّظْمَ جاء بإفراد ﴿مُنتَصِرُونَ﴾ مُراعاةً للفظ والمعنى، فجاء الخبرُ ﴿مُنتَصِرُونَ﴾ مُفْرَدًا مُطَابِقَةً لفظ ﴿جَمِيعٌ﴾، ولبيان ما دلَّ عليه كَلَامُهُم مِن أَنَّهُمْ مُجْتَمِعُونَ على كلمة رجلٍ واحدٍ، فكأنَّهم يقولون: نحن رجلٌ واحدٌ مُنتَصِرٌ؛ ففيه تنبيهٌ على الإفراط والمبالغة في الاعتداد بالنفس، والاغترار بما سيُحَقِّقُونَهُ من ظفرٍ.

الجناس
الاشتقاقِيُّ يُبرِزُ
التَّنَاقُضَ بين
غُرُورِ المُكذِّبين
وواقعِ الهزيمة

كثرةُ الأنصارِ لا
تنفَعُ مَن خَذَلَهُ
الله

(1) صافي، الجدول: 1/ 100.

(2) الجوهري، الصحاح: (جمع)، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 37/ 25.

مَوْقِعَ جَمَلَةٍ «سَيَهْزُمُ الْجَمْعُ» مِمَّا قَبْلَهَا:

جَمَلَةٌ «سَيَهْزُمُ الْجَمْعُ» اسْتِثْنَائِيَّةٌ، وَقَعَتْ جَوَابًا عَلَى قَوْلِهِمْ: «نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرُونَ»، فَأُجِيبَ: «سَيَهْزُمُ الْجَمْعُ وَيُولُونَ الدَّبْرَ»، فَفِيهِ رَدٌّ وَإِبْطَالٌ لَذَلِكَ، وَلَكُونُهُ جَوَابًا فُصِّلَ، وَلَمْ يُعْطَفْ⁽¹⁾.

دَلَالَةُ السَّيْنِ:

السَّيْنُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: «سَيَهْزُمُ الْجَمْعُ»: لِلتَّأْكِيدِ وَالتَّقْرِيبِ، وَلِذَلِكَ لَمْ يُقَلْ: (سَوْفَ يَهْزُمُ)؛ لِاسْتِبْعَادِ التَّرَاخِي وَتَحْقِيقِ التَّعْجِيلِ⁽²⁾.

نُكْتَةٌ بِنَاءِ فِعْلِ «سَيَهْزُمُ» لِلْمَفْعُولِ:

بُنِيَ فِعْلُ «سَيَهْزُمُ» لِمَا لَمْ يُسَمَّ فَاعِلُهُ؛ لِلدَّلَالَةِ عَلَى أَنَّ انْهِزَامَهُمْ حَاصِلٌ بِأَهْوَنِ سَبَبٍ وَأَيْسَرِ طَرِيقٍ، كَأَنَّهُ لِسُهُولَتِهِ يَحْصُلُ مِنْ تَلْقَاءِ نَفْسِهِ، وَلِلتَّنْبِيهِ عَلَى أَنَّهُ وَعْدٌ مَضمُونٌ لَا يَحْتَمِلُ خُلْفًا وَلَا إِبْطَاءً وَلَا مُعَاظَلَةً أَوْ عَنَتًا⁽³⁾.

مَعْنَى تَعْرِيفِ لَفْظِ «الْجَمْعُ»:

(ال) فِي لَفْظِ «الْجَمْعُ» لِلْعَهْدِ الذِّكْرِيِّ، وَالْمَعْهُودُ مَا فِي قَوْلِهِ: «نَحْنُ جَمِيعٌ»؛ أَي: سَيَهْزُمُ الْجَمْعُ الْقَائِلُ بِأَنَّهُ مُنْتَصِرٌ، فَ(ال) عِوَضٌ عَنْ مُضَافٍ إِلَيْهِ، وَهُوَ ضَمِيرُهُمْ⁽⁴⁾.

دَلَالَةُ الْجَمْعِ فِي «وَيُولُونَ»:

أُفْرِدَ الْفِعْلُ وَالْفَاعِلُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: «سَيَهْزُمُ الْجَمْعُ»، وَجَاءَ التَّعْبِيرُ فِي قَوْلِهِ: «وَيُولُونَ» بِإِسْنَادِ الْفِعْلِ إِلَى ضَمِيرِ الْجَمْعِ؛ وَذَلِكَ لِبَيَانِ أَنَّ الْهَزِيمَةَ سَتُفَرِّقُهُمْ، فَهُمْ بَعْدَ أَنْ اجْتَمَعُوا تَنْظِيرًا، وَأَصْبَحُوا يَدًا وَاحِدَةً فِي دَعْوَاهُمِ الْمُنْبِئَةِ عَنْ ضَعْفِ عَقُولِهِمْ فِي فَهْمِ حَقَائِقِهِمْ

كُلُّ تَجْمُعٍ
بَاطِلٌ مَحْكُومٌ
بِالْخُذْلَانِ مَهْمَا
بَدَأَ مُتَمَاسِكًا

انْهِزَامُ الْجَمْعِ
بِأَدْنَى سَبَبٍ أَمَرٌ
مَحْتَوَمٌ

فُرْقَةُ الْأَفْعَالِ
هَاتِكَةُ لِسْتَرٍ
وَحْدَةُ الْأَقْوَالِ

(1) أَبُو السَّعُودِ، إِرْشَادُ الْعَقْلِ السَّلِيمِ: 8 / 174، وَابْنُ عَاشُورٍ، التَّحْرِيزُ وَالتَّنْوِيرُ: 27 / 213.

(2) أَبُو السَّعُودِ، إِرْشَادُ الْعَقْلِ السَّلِيمِ: 8 / 174.

(3) الْبِقَاعِيُّ، نَظْمُ الدَّرَرِ: 19 / 131.

(4) الْقَوْنِيُّ، حَاشِيَتُهُ عَلَى تَفْسِيرِ الْبَيْضَاوِيِّ: 18 / 336، وَابْنُ عَاشُورٍ، التَّحْرِيزُ وَالتَّنْوِيرُ: 27 / 213.

القائمة على باطل الاعتقاد، وسوء الارتباط، جاءت الهزيمة لهم جميعاً ففرقتهم، فبانت فرقتهم بتولية الأدبار، كل منهم ولئى الدبر، فوقعوا في خزي الإنباء قبل أن يقع، وفضيحة الاستهتار بهتك الأستار عما سيقع.

دلالة إفراد لفظ «الدبر»:

أهل الباطل
اجتمعوا على
قول واحد، وفي
التولية كدبر
واحد

أفرد لفظ «الدبر»، فلم يقل: (الأدبار)؛ لإرادة الجنس، بناءً على أن (الد) للجنس، فالمراد الماهية والحقيقة، سواء كانت مُحَقَّقة ضمن فردٍ أو أفرادٍ، والمراد هنا تحقُّقها ضمن أفرادٍ كثيرة⁽¹⁾. ويَحْتَمِلُ أن يكون في تأويل: (يولئى كل واحدٍ منهم دُبْرَهُ) على حد قولهم: (كسانا الأمير حُلَّةً)؛ أي: حُلَّةً لكل واحد⁽²⁾، كما أن واو الجمع تنوب عن تكرار واو العطف، فقوله: «وَيُولُون» بمثابة: (يولئى هذا الدبر، ويولئى ذاك، ويولئى الآخر)؛ أي: كل واحدٍ يولئى دُبْرَهُ⁽³⁾، أو إفراده إشارةً إلى أنهم في التولية كَنَفْسٍ واحدةٍ، فلا يَتَخَلَّفُ أَحَدٌ عَنِ الجمع، ولا يَتَّبْتُ أَحَدٌ لِلزَّحَفِ؛ فهُمْ كانوا في التولية كدبرٍ واحدٍ⁽⁴⁾، كما كانوا في الجمع كَنَفْسٍ واحدةٍ، وهذا من صنيع أهل الهزائم بعد الانكشاف في ميدان أهل العزائم.

بلاغة الكناية وفائدتها:

جملة «وَيُولُون الدبر» كناية عن صفة الفرار والهزيمة، وفائدة الكناية تقريبُ المشهد بطريقتة حسيَّة (إبداء الظَّهْر)؛ لتقريب صورة الهزيمة في الذهن.

بلاغة الإضراب ونوعه:

جملة «بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ» إضرابٌ انتقاليٌّ مِنَ الوعيد بعذاب

عذاب الدنيا
مفتاح عذاب
السَّاعة

(1) القنوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 336 / 18.

(2) الألوسي، روح المعاني: 92 / 14.

(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 322 / 29.

(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 322 / 29.

الدُّنْيَا كما حُلَّ بِالْأَمَمِ قَبْلَهُمْ إِلَى الْوَعِيدِ بِعَذَابِ الْآخِرَةِ⁽¹⁾. وهذا الإِضْرَابُ عَطْفٌ عَلَى مُقَدَّرٍ مَحْذُوفٍ، كَأَنَّهُ قِيلَ: لَيْسَ هَذَا تَمَامٌ عُقُوبَتِهِمْ أَوْ عِقَابِهِمُ الْوَحِيدِ، بَلْ يَنْتَظِرُهُمْ مَوْعِدٌ مِنَ الْعَذَابِ آخَرٌ، هُوَ مَوْعِدُ السَّاعَةِ⁽²⁾.

وعليه: ف﴿بَلِ﴾ هنا للإِضْرَابِ الْإِنْتِقَالِيِّ الَّذِي يَعْطِفُ غَرَضًا عَلَى غَرَضٍ، فَكِلْتَا الْجُمْلَتَيْنِ قَبْلَ ﴿بَلِ﴾ وَبَعْدَهَا مُقَرَّرٌ وَثَابِتٌ، فَالِإِضْرَابُ إِنْتِقَالِيٌّ لَا إِبْطَالِيٌّ، وَيَصِحُّ أَنْ يَكُونَ الْإِضْرَابُ جَوَابًا عَنْ سُؤَالٍ مُقَدَّرٍ: أَيْكُونُ انْهَازُ جَمْعِهِمْ هُوَ غَايَةُ عَذَابِهِمْ؟ فَأُجِيبَ: ﴿بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ﴾، فَالْجُمْلَةُ حِينَئِذٍ اسْتِثْنَاءٌ بَيَانِيٌّ.

نُكْتَةُ اخْتِصَاصِ السَّاعَةِ بِكَوْنِهَا مَوْعِدُهُمْ:

خَصَّ النَّظْمُ السَّاعَةَ بِالذِّكْرِ فِي كَوْنِهَا مَوْعِدُهُمْ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ﴾، مَعَ أَنَّهَا مَوْعِدٌ لِلْجَمِيعِ مُؤْمِنًا وَكَافِرًا؛ لَكُنْ هَذَا مِنْ بَابِ التَّخْصِيسِ بِالتَّهْدِيدِ، وَالْبَيَانِ عَلَى سَبِيلِ الرَّدِّ وَالتَّفْنِيدِ، وَيدُلُّ عَلَيْهِ أُمُورٌ: أَنَّهُمْ هُمُ السَّائِلُونَ عَنِ الْعَذَابِ تَكْذِيبًا، لَا إِيمَانًا، فَقَالُوا: ﴿مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾⁽³⁾ [يُونُسُ: 48]، وَقَالُوا: ﴿عَجَلْ لَنَا قِطْنًا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ﴾⁽⁴⁾ [ص: 16]، وَأَنَّهُمْ أَنْكَرُوا الْبَعْثَ أَصْلًا، فَكَأَنَّ السَّاعَةَ لَا تَعْنِي عِنْدَهُمْ شَيْئًا، فَجِئَءَ بِهَا هُنَا لِتَصَدِّمَهُمْ وَتُقَرِّرَها عَلَيْهِمْ خِصِّصًا؛ أَي: إِنْ كُنْتُمْ تَسْتَبْعِدُونَ وَقُوعَهَا، فَهِيَ لَكُمْ أَنْتُمْ مَوْعِدٌ لَا مَحَالَةَ. وَلِذَا فَالْخَطَابُ هُنَا لِلْوَعِيدِ لَا لِلْجَزَاءِ عَلَى الطَّاعَةِ، فَالْمُؤْمِنُونَ مَوْعِدُهُمُ الْخَيْرُ، لَا يُخَاطَبُونَ بِصِغَةِ وَعِيدٍ، بَيْنَمَا الْكَفَّارُ مَوْعِدُهُمُ الْإِنْتِقَامُ، فَوُجِّهَتِ السَّاعَةُ إِلَيْهِمْ، وَخُصِّصَتْ بِهِمْ⁽³⁾.

السَّاعَةُ مَوْعِدٌ
مَخْصُوصٌ
بِالْعِقَابِ لِنِ
اسْتِهْزَاءٍ بِهَا
وَجَحْدِهَا

(1) ابن عاشور، التَّحْرِيرُ وَالتَّنْوِيرُ: 214 / 27.

(2) الْأَلُوسِيُّ، رُوحُ الْمَعَانِي: 92 / 14.

(3) الْفَخْرُ الرَّازِيُّ، مِفْتَاحُ الْغَيْبِ: 322 / 29.

موقع جملة ﴿وَالسَّاعَةُ أَذْهَى وَأَمْرٌ﴾:

عذاب السَّاعة
مُؤَكَّدٌ لَا مَفَرَّ
منه، وهو أَذْهَى
من كُلِّ ما سلف

جملة ﴿وَالسَّاعَةُ أَذْهَى وَأَمْرٌ﴾ استئنافٌ بالوعيد الصَّريح، بعد الإلماع إليه في جملة الإضراب؛ والمعنى: بل السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ، وذلك مَوْعِدٌ عذابٍ لا مَوْعِدٌ رحمة؛ لأنها ساعةٌ فُطِيعَةٌ عليهم ومَرَارٍ. وتقديرُ المضافات هاهنا سائِعٌ؛ والمعنى: بل السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ، وعذابُ السَّاعَةِ أَذْهَى وأَمْرٌ. وحذفُ المضاف وإقامةُ المضاف إليه مقامَهُ مِنَ المَجَازَاتِ السَّائِعَةِ، ويكون لدفع الإطناب، وإبراز الفُطِيعَةِ كأنَّها هي ذاتُ السَّاعةِ.

نُكْتة إعادة اسم (السَّاعة):

إعادة ذكر
السَّاعةِ توكيدٌ
لِهَوْلِها وتَهْوِيلٌ
لأمرِها

أُعِيدَ اسْمُ (السَّاعَةِ) في قوله تعالى: ﴿وَالسَّاعَةُ أَذْهَى﴾ دون أن يُؤْتَى بضميرها، فلم يُقَلْ: (بل السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وهي أَذْهَى)؛ لقصدِ التَّهْوِيلِ، ولتكونَ الجملة مُسْتَقْلِلَةً بِنَفْسِها، فتجري مَجْرَى المَثَلِ السَّائِرِ⁽¹⁾.

بلاغة حذفِ مُقَارِنِ التَّفْضِيلِ:

ترك بيان
المَفْضُولِ بدلُ
على أن لا شيء
يَفُوقُ عذابَ
السَّاعةِ

حُذِفَ مُقَارِنُ التَّفْضِيلِ في قوله تعالى: ﴿وَالسَّاعَةُ أَذْهَى وَأَمْرٌ﴾، فلم يُعَيَّنْ أَذْهَى وَأَمْرٌ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ؟ وتوجيه الحذف أنه لتوسيع دائرة الهَوْلِ، فلو قيل: (أَذْهَى مِنْ عَذَابِهِمْ)؛ لَقُيِدَ الهَوْلُ، لكن حين يُتْرَكُ، فالمعنى: لا شيء أَشَدُّ مِنْهَا، بل هي أَذْهَى مِنْ كُلِّ الدَّوَاهِي والأهوال، ولبلوغ الغاية؛ أي: أَذْهَى الدَّوَاهِي، وأَمْرٌ المَرَارَاتِ، فلا دَاهِيَةَ تُمَاتِلُهَا. وهذا من أقوى صيغِ التَّفْضِيلِ، إذا حُذِفَ طَرَفُ التَّفْضِيلِ هنا يُقْصَدُ بِهِ الوصولُ إلى ذروة المعنى، والوجهان لا يتنافيان، بل يُمكن الجمعُ بينهما، فهي ﴿أَذْهَى﴾ مِنْ كُلِّ عَذَابٍ سَلَفَ فِي الدُّنْيَا. و﴿أَذْهَى﴾ على إطلاقِ التَّفْضِيلِ؛ أي: أَنَّهَا غَايَةُ ما تَتَصَوَّرُهُ النَّفْسُ مِنَ الدَّوَاهِي والشَّدَائِدِ⁽²⁾.

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 174، وابن عاشور، التَّحْرِيزُ والتَّنْوِيرُ: 27/ 214.

(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 322.

بلاغة الاستعارة في لفظ «أمر»:

(المرارة) في الأصل: طعمٌ لاذعٌ غيرٌ محبوب، وهذا معنىً حسيٌّ ماديٌّ، وفي قوله تعالى: «وَالسَّاعَةُ أَذْهَى وَأَمْرٌ» استعملت الكلمة في غير معناها الأصلي، فلا حديث عن طعم يُذاق، بل عن عذابٍ نفسيٍّ وهولٍ معنويٍّ. فاستُعيرت المرارة للإحساس بالمرور، فالمرارة هنا ترمزُ إلى ثقل وقع المصيبة على النفس، وصعوبة احتمالها، فهي مرارةٌ وجدانيّةٌ لا طعميّةٌ. وهذا من تشبيه المعقول بالمحسوس؛ لتقريبه إلى الذهن، فوصفت السّاعة بأنّها (أمرٌ) تشبيهاً لحالها في شدّتها على النفس، بما يُعرف من شدّة (المرارة) في الطّعم، فكان هذا من استعارة المحسوس (المرارة الدّوقيّة) للمعقول (الكرب النّفسيّ)؛ لإبراز فظاعة السّاعة عليهم، وصعوبة احتمالها، وقُبِح أثرها في الوجدان. وهذه الاستعارة تمثليّةٌ؛ لأنّ الآية لا تشبّه شيئاً مفرداً بشيءٍ مفردٍ، بل تصوّرُ حال السّاعة في شدّتها وهولها، بصورة مرارة الطّعم الشّديدة، وهذا تمثيلٌ لحالة نفسيّةٍ لا تُرى، بصورة حسيّةٍ مألوفةٍ⁽¹⁾.

السّاعة تُذيب
ظاهرهم
بالزّبابا، وتكسر
باطنهم بالمرارة

نكتة تقديم «أذهى» على «أمر»:

التّقديم بين الصّفتين «أذهى وأمر» في سياق قوله تعالى: «بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَذْهَى وَأَمْرٌ» له نكتة معنويّة بالغة، وهو تحقيقُ التّصاعُدِ المعنويّ المتدرّج من الأدنى إلى الأعلى. فتقديم «أذهى» لدلالاتها على الهول الظاهر أولاً؛ أي: ما يلمسه النّاس من أثر السّاعة ودهشتهم بهولها. وتأخيرُ (أمر) لارتباطها بالمرارة الباطنة؛ أي: الإحساس الدّاخليّ بالعذاب وذوقه النّفسيّ.

شدّ الانتباه من
الإدراك الظّاهر
إلى الإحساس
الباطن في جوهر
النّفس

(1) ابن عطية، المحرّر الوجيز: 221 / 5، والآلوسي، روح المعاني: 92 / 14، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 214 / 27.

وعليه، فالتقديم والتأخير هنا يُحقّقان تصاعداً في التأثير من الخارج إلى الداخل، ومن الظاهر إلى الباطن؛ ليكتمل تصوّر العذاب بكل أبعاده، ولا يخفى ما في تأخير (أمر) من مُراعاة الفاصلة، وصيانتها ألا تتخرّم.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثامن والخمسون،
سورة الطور من الآية 25 إلى سورة الزّحمن الآية 30
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة

*

التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
© حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م

*

الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366

م. ق. ت

التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثامن والخمسون، سورة الطور من الآية 25 إلى سورة الزّحمن الآية 30
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغامي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 58 ، 800 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-647-62-1
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 58 : المجلد الثامن والخمسون، سورة الطور من الآية 25 إلى سورة الزّحمن الآية 30.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-647-62-1

*

إذن طباعة رقم: MC-03-01-4238337 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة

*

الفئة العمرية : E

"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"

*

الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي "النجار"